



-1-

اقتحمت داعش مدينة البوكمال فجر الخميس العاشر من نيسان في هجوم غادر مباغت، ونجح الغزاة في السيطرة على المدينة لعدة ساعات قبل أن يُضطروا إلى الانسحاب تحت ضغط الهجوم العكسي الكاسح الذي شنته عليهم قوات كبيرة تدفقت على المدينة من ريف دير الزور، من جبهة النصرة ولواء الفادسية ولواء الشهيد عمر المختار وعدد كبير من الكتائب المحلية.

ترك الغزاة وراءهم "توقيع" داعش المعروف وبصماتها الدموية التي تُعلن: "داعش مررت من هنا؛ عشرات الشهداء، منهم بضعة عشر من المجاهدين أعدمهم القتلة إعداماً جباناً وهم مقيدون. أثارت العملية الغارقة على البوكمال اهتماماً إعلامياً صاخباً لم يلبث أن خبا خلال الأيام التالية، فقد اطمأن الجميع بعد فشل الهجوم الداعشي وطُويت تلك الحادثة المهمة في زحمة الصخب العالي لمعارك حمص وحمماة والساحل، وفي غمرة ذلك كله لم يسأل أحد السؤال المهم: لماذا أطلقت داعش ذلك الهجوم؟ وهل عاد الخطر الداعشي من جديد؟

-2-

السؤال الثاني جوابه سهل: وهل غاب خطر داعش أصلاً؟
لقد كان موجوداً قبل الهجوم على البوكمال، وما يزال، وكان خطراً كبيراً على الثورة وعلى الجهاد السوري برمتها، وما يزال،

وكان أولى الأخطار التي تهدد الثورة بالرصد والعلاج، وما يزال.

لنا حاول العثور على جواب للسؤال الأول:

هل كانت الخطة هي احتلال البوكمال؟ إنه أمر مستبعد، لأن احتلال مدينة بهذا الحجم يحتاج إلى قوة كبيرة لا تقل عن بضعة آلاف مقاتل، والمعروف الآن أن القوة الغازية تألفت من مائتي عنصر يحملون أسلحة خفيفة ومتعددة فحسب.

صحيح أن الغزاة كانوا يعرفون الطريق جيداً وقد اتجهوا فوراً إلى المراكز المهمة في المدينة: مبني الأمن السياسي ومنطقة الصوامع وجسر الباغوز والمشفى الوطني ومشفى عائشة، وصحيح أنهم استغلوا عنصر المفاجأة ونجحوا في السيطرة السريعة على تلك الأهداف، ولكن هذا كله لا يكفي لاحتلال المدينة وإن يكن كافياً لإحراز تقدم خاطف في المعركة، وداعش لا تخوض معارك ارتجالية في العادة، وإنذ فإننا نعود إلى السؤال: لماذا هاجمت داعش البوكمال؟

الذين بحثوا عن جواب السؤال في البوكمال ذاتها أغلقوا ملف القضية بعد تحريرها من الغزاة مساء ذلك اليوم، ولكن الملف ما كان له أن يُغلق لأن الجواب ليس فيها؛ إنه في كواجب والشولا وفي القورية والطيانة والموحسن وزبيان وفي مرقدة والحسين والصور والبصيرة، أو بتعبير أشمل: إنه في الجزيرة السورية كلها.

إنها بداية العلو الثاني لداعش في سوريا، ولئن علت الثانية لتفسدن فساداً عظيماً كما صنعت أول مرة.

-3-

بعد الموقف الشجاع الذي وقفه جيش المجاهدين في وجه تمدد داعش في الشمال المحرر أواخر كانون الأول الماضي، ذلك الموقف الرجولي الذي لن تنساه سوريا لأولئك الأبطال الصادقين، ثم بعدما انضم إليهم إخوانهم في التوحيد والأحرار والنصرة وبقية الكتائب المجاهدة في إدلب وحلب ودير الزور، بعد ذلك كله لم تجد داعش بدلاً من الانسحاب من أكثر المناطق التي احتلتها سابقاً، فانسحبت من محافظة دير الزور وأخلت مواقعها في ريف حلب الغربي وفي جميع مناطق إدلب (ولم تنس أن تفجر الطائرات المروحيّة التي كانت رابضة في مطار منع قبل انسحابها منه لئلا يستفيد منها الثوار في أي يوم من الأيام).

مع أواخر شباط 2014 نجحت كتائب ريف حلب الشمالي في دفع قوات الاحتلال الداعشية باتجاه الشرق، وبعد ذلك بأسابيعين أتمت داعش انسحاقيها من آخر معاقلها في ريف اللاذقية، فسلمت أسلحتها الثقيلة ومقرّاتها في جبل الأكراد والتركمان لجبهة النصرة مقابل فتح الطريق أمام عناصرها للتوجه بأسلحتهم الفردية إلى الرقة.

لكن داعش لا تستسلم بسهولة، فإن الذين "صنعواها" لن يتراجعوا عن هدفهم الذي صنعواها من أجله، لذلك لم يكن انسحاب داعش من تلك المناطق كلها هزيمة لها، بل كان يمثل التطبيق الحقيقي لمصطلح مشهور كثيراً ما أُسيء استخدامه في حربنا الثورية: "الانسحاب التكتيكي".

-4-

عودة إلى الوراء: بعدما أعلن البغدادي تأسيس عصابة داعش في نيسان من العام الماضي بدأ على الفور بجهود حثيثة لبناء جيش محارب، فأنفق أربعة أشهر في تجميع الكوارد وتدريبها وفي شراء الأسلحة والذخائر وتكتيسيها في معسكرات "الدولة" في الرقة ودير الزور، ثم بدأ الغزو: هاجمت داعش مدن الرقة وقرها فاحتلتها عنوةً، وسرعان ما أحكمت سيطرتها على محافظة الرقة كلها فصارت قاعدةً الرئيسية في الشرق.

ثم بدأت بالانتشار في الحسكة ودير الزور فاحتلت مساحات واسعة من أراضي المحافظتين، وبعد ذلك بدأت باجتياح المناطق المحررة في حلب وإدلب والساحل.

ذلك كان هو الطريق الذي سلكته داعش لاحتلال "سوريا المحررة" خلال الأشهر الخمسة الأخيرة من العام الماضي (2013)، وكما رأينا فقد نجح المجاهدون في "عكس" ذلك الانتشار فعادت داعش إلى التقلص والتراجع حتى دخلت في الجُحر الذي خرجت منه أول مرة، الرقة المحطلة!

وهنا ارتكب المجاهدون أكبر أخطائهم الإستراتيجية في المعركة، فقد توقفوا عن مطاردة العصابة بعد انكفاءها إلى الرقة وتركوها لتعيد تنظيم قواها وتعويض خسائرها، فما لبث أن صارت جاهزة للهجوم من جديد. وتشير البدايات المقلقة للمعركة الجديدة إلى أن داعش ستحاول إعادة خطة الغزو الأولى التي طبقتها في العام الماضي، فتبدأ بمحافظي الدير والحسكة، ثم تطلق إلى غزو حلب من الشمال الشرقي، مع إضافة خطيرة: تحريك الخلايا النائمة في المناطق المحررة.

-5-

أثار هجوم داعش على البوكمال في العاشر من نيسان ضجة إعلامية واسعة، لكنه لم يكن عملية مفردة، فقد كان جزءاً من حملة واسعة نفذتها داعش على ثلاثة محاور: مدينة البوكمال، ومحور كيابجـ الشولا على أستراد دمشق غرب مدينة دير الزور، ومحور مركدةـ الصور على الخابور الأوسط.

وحيث إن الهجوم على البوكمال كان أقرب إلى الغارة الخطافه منه إلى الحرب الحقيقية ولم تحشد له داعش سوى مئتي مقاتل فإنني أميل إلى الظن بأنه كان مجرد فقاعة لصرف الانتباـ عن موقع الهجوم الرئيسي ولتشتيـت قوات المجاهدين بين الجبهـات.

وقد انتهى الهجوم إلى فشـل كامل خلال ست ساعات، وكذلك فشـلت الغارة الأخرى على كيابـجـ والشولا فانسـحبـت منها بقايا القوة الغازية في اليوم التالي، يوم الجمعة الحادي عشر من نيسـان.

كان دخـول قـوة الغزو إلى البوـكمـال استـعراضـياً تماماً وقد أثـار الضـجة الإـعلامـية المـطلـوبة، وازـدـادـت الضـجة مع الإـعدـامـاتـ المـيدـانـيةـ الـواسـعـةـ الـتيـ نـفـذـتهاـ العـصـابـةـ فـيـ المـديـنـةـ،ـ ماـ اـسـتـدـعـىـ نـفـيرـاًـ عـامـاًـ تـدـفـقـتـ بـعـدهـ عـلـىـ الـبـوكـمـالـ أـعـدـادـ كـبـيرـةـ منـ المـقـاتـلـينـ مـنـ الـمـنـاطـقـ الـقـرـيـةـ،ـ كـمـ اـنـتـقـلـتـ أـعـدـادـ أـخـرىـ إـلـىـ الشـولاـ وـكـيـابـجـ لـوقـفـ الـغـزوـ الدـاعـشـيـ الـآـتـيـ مـنـ الـبـادـيـةـ.

في الـوقـتـ نـفـسـهـ تـحـركـتـ "الـخـلـاـيـاـ الدـاعـشـيـةـ النـائـمـةـ"ـ فـيـ الـقـورـيـةـ وـالـطـيـانـةـ وـالـمـوـحـسـنـ وـذـيـبـانـ وـالـبـصـيرـةـ،ـ وـانـتـشـرـتـ عـنـاصـرـ دـاعـشـ فـيـهاـ اـنـتـشارـاًـ مـفـاجـئـاًـ أـثـارـ قـلـقاًـ عـامـاًـ فـيـ الـرـيفـ الـجـنـوـبـيـ مـنـ الـدـيرـ إـلـىـ الـبـوكـمـالـ.

تلك الأحداث المتـسـارـعةـ والمـتـزـامـنةـ سـاعـدـتـ عـلـىـ تـشـيـتـ كـتـائبـ دـيرـ الزـورـ وـبعـثـرـتهاـ،ـ فأـضـعـفـتـ أـهـمـ مـحاـورـ القـتـالـ وـسـهـلـتـ تـقـدمـ قـوةـ الـغـزوـ الرـئـيـسـيـ عـلـىـ اـمـتـادـ الـخـابـورـ،ـ حـيـثـ تـحـركـتـ قـوـةـ تـقـدـرـ بـنـحوـ أـلـفـ مـقـاتـلـ دـاعـشـ مـنـ الشـدـادـيـ بـاتـجـاهـ الـجـنـوبـ.

-6-

عـندـماـ يـكـتبـ تـارـيخـ الثـورـةـ السـورـيـةـ سـوـفـ يـخـصـصـ فـصـلـ للـحـرـبـ الـأـوـلـيـ مـعـ دـاعـشـ الـتـيـ بـدـأـتـ فـيـ الـأـتـارـبـ فـيـ الـثـلـاثـيـنـ مـنـ كـانـونـ الـأـوـلـ 2013ـ،ـ وـسـيـخـصـ فـصـلـ آـخـرـ للـحـرـبـ الـثـانـيـ الـتـيـ بـدـأـتـ فـيـ مـرـكـدـةـ فـيـ الـثـلـاثـيـنـ مـنـ آـذـارـ 2014ـ،ـ وـالـتـيـ مـاـ تـزالـ تـجـريـ أـحـدـاثـهاـ بـعـيـداًـ عـنـ الضـوءـ الإـعـلـامـيـ السـاطـعـ حـتـىـ الـآنـ،ـ غـيـرـ أـنـهـاـ لـنـ تـلـبـثـ أـنـ تـصـبـحـ فـيـ عـمـقـ الـثـورـةـ عـمـاـ قـرـيبـ إـذـاـ لـمـ تـوضـعـ نـهـاـيـةـ حـاسـمـةـ لـهـاـ قـبـلـ فـوـاتـ الـأـوـانـ.

في ذلك الـيـوـمـ شـنـتـ دـاعـشـ هـجـومـاًـ مـيـاغـتاًـ عـلـىـ مـرـكـدـةـ فـقـتـلـتـ أـكـثـرـ مـنـ خـمـسـيـنـ مـنـ مجـاهـديـ النـصـرـةـ وـالـأـحـرـارـ الـذـيـنـ كـانـواـ يـسـيـطـرـونـ عـلـىـ الـبـلـدـةـ،ـ وـقـتـلـتـ فـيـهاـ نـبـحاًـ عـدـدـاًـ مـنـ النـاشـطـينـ مـنـ غـيـرـ الـمـسـلـحـينـ.

جاءت القوة الداعشية التي نفذت الهجوم المفاجئ من الشدادي التي تحولت مؤخراً إلى قاعدة داعش في ريف الحسكة الجنوبي، على الخابور الأوسط، حيث يرابط فيها نحو ألفين من مقاتلي تلك العصابة. لكي تخيل مجريات الأحداث ومخطط الغزو الداعشي فإن علينا الاطلاع على خريطة المنطقة ومعرفة قيمتها الإستراتيجية في حرب التحرير:

يمتد نهر الخابور من رأس العين على الحدود التركية إلى مدينة الحسكة (ويدعى هذا الجزء الخابور الأعلى) ثم يكمل جنوباً مروراً بالشدادي ومركدة وصولاً إلى الصور (وهذا الجزء يسمى الخابور الأوسط) وبعده يمتد الخابور الأدنى الذي يكمل التدفق جنوباً حتى يصب في الفرات عند بلدة البصيرة، على بعد عشرين كيلومتراً من الميادين تقرباً. تبلغ مساحة الأراضي الزراعية الخصبة في حوض الخابور أربعة ملايين فدان يُزرع أكثرها بالقمح، وتعتبر هذه المنطقة "سلة قمح سوريا"، فمن سيطر عليها صار بإمكانه أن يُشبّع السوريين أو يجوعهم، كما تنتشر حولها وبالقرب منها أهم آبار النفط في سوريا، وهذا ما يمنح النزاع على تلك المنطقة بعداً إستراتيجياً مهماً في حرب التحرير.

-7-

انسحبت داعش مساء الخميس (10/4) من البوكمال كما انسحبت من الشولا وكباقي في اليوم التالي، ونجح السكان في محاصرة وطرد الخلايا الداعشية التي كانت نائمة في القرية والطيانة والموحسن واستفاقت مع غارات داعش الأخيرة، ولكن الهجوم الرئيسي في الخابور استمر بقوته الكاملة، فسيطرت داعش يوم الجمعة على بلدة الحصين (وهي على بعد نحو عشرين كيلومتراً جنوب مركدة) وقصفت بالمدفعية الثقيلة قرية غريبة الشرقية القريبة منها.

خلال الأيام التالية استولت داعش على عدد من القرى المحيطة بالحصين وغريبة بعد معارك شرسة مع جبهة النصرة وبعض الكتائب المحلية تسببت في نزوح آلاف المدنيين من قرى المنطقة، وبدأت بالتقدم باتجاه بلدة الصور الإستراتيجية، فاحتلت الموبلح أولاً (13/4) ثم دخلت إلى الصور بعدها بيومين (15/4) حيث ارتكبت -كالعادة- مجزرة راح ضحيتها نحو ستين شهيداً من المجاهدين والمدنيين في البلدة.

الأيام التالية كانت عصيبة على كل القرى التي تقع بين الصور وهدف داعش التالي:

البصيرة، فقد دخلت داعش قرية النمية جنوب الصور وقامت باعتقالات واسعة فيها، وترافق تقدم داعش باتجاه البصيرة مع حركة نزوح وتشرد هائلة من قرى الخابور الأدنى كلها.

فيما أكتب هذه الكلمات تدور اشتباكات منذ يومين في قرية الحريجي على بعد ثلاثين كيلومتراً من البصيرة التي تستميت داعش للسيطرة عليها، ولو أن داعش استمرت بالتقدم ونجحت بالسيطرة على البصيرة فسوف تنتقل المعركة إلى الشحيل والميادين، معاقل جبهة النصرة في الدير، وقد يشتعل حوض الفرات كله من البوكمال إلى دير الزور.

يوشك الخطر الداعشي أن يعود أكبر مما كان، فماذا يصنع المجاهدون؟

الجواب واحد لا جوابَ غيره، هو أمر النبي صلى الله عليه وسلم الذي نقرؤه في حديث البخاري ومسلم: "أينما لقيتموهن فاقتلوهم، فإنْ قتلهم أجرٌ لمن قتلهم يوم القيمة".

(التكلمة في المقالة القادمة إن شاء الله)

المصادر: